الفتُور في الصلاة: حنين إلى خبرة "مصر"

الأب ميلاد الجاويش المخلّصيّ

مذ كانت الصلاة كان الفتور. ليس في تاريخ المسيحيّة من مصلٍّ كان بمأمن من هذا الشعور المؤرق. من بولس، رسول القرن الأوّل، إلى القدّيسة تريزيا الطفل يسوع، قدّيسة القرن العشرين، الحكاية هي نفسها مع الفتور. الأوّل اعترف أنّه لا يقدر على الصلاة كما يجب ما لم يأتِ روح الله ليُنجد ضعفه (رو ٨: ٢٦)، والثانية تكلّمت عن "ظلمات نفق الإيمان المظلم"[١] التي كانت ترميها في بحر من اليبوسة الروحيّة وتشلّ قدرتها على الصلاة، فتمضي وقت الصلاة في بعض المرّات وهي تعدّ صفائح بلاط الكنيسة. لكن، هل كلّ فتور هو مثل هذا، لا إراديّ؟ أليس هناك فتور إراديّ؟ ما هو الفتور إذًا؟ هل من خبرة في الكتاب المقدّس تشرحه لنا؟ وكيف بالتالي نتداوى منه؟ كلّها أسئلة سنحاول الإجابة عليها في هذه السطور.

فتور على نوعين

علينا أوّلاً التمييز بين نوعين من الفتور:

الأوّل، إراديّ، وهو الذي يكون المؤمن مسؤولاً عنه. لضعفٍ فيه، يترك المؤمن نفسَه عرضة للتجارب، فينسى نعمة الله المسكوبة عليه، فتلفحه رياح الخطيئة من كلّ صوب وتبرّد حرارة إيمانه. يطيب للقدّيس بولس أن يُشبِّه المؤمن بالرياضيّ الذي عليه أن يروّض نفسه دومًا على التقوى: "**رَوِّض** نفسَك على التقوى، فإنّ **الرياضة البدنيّة** فيها بعضُ الخير، وأمّا التقوى ففيها خيرٌ لكلِّ شيء" (١تيم ٤: ٧-٨). فعل "**روّض**" الذي يستعمله بولس هنا هو ترجمة للفعل اليونانيّ "جيمنازو" (γυμνάζω)، وهو فعل رياضيّ بامتياز. لذلك، ما إن يتكاسل المؤمن ويهجر تمارين الإيمان، حتّى يتسلّل الخمول إلى جسده الروحيّ، ويصيبه التراخي ويتفشّى الفتور. من هنا يدعوه القدّيس بولس إلى أن يكون دائمًا مستعدًّا، جنديًّا مقاومًا، ومجاهدًا مسلَّحًا بأسلحة البرّ والإيمان. أوصى مرّة تلميذه تيموثاوس: "شاركني في المشقّات، شأن **الجنديّ** الصالح للمسيح يسوع. ما من أحد يُجنَّد يَشغَلُ نفسَه بأمور الحياة المدنيّة، إذا أراد أن يُرضيَ الذي جنّده. و**المصارع** أيضًا لا ينالُ الإكليلَ إن لم يصارعْ صراعًا شرعيًّا" (٢تيم ٢: ٣-٥). وفي رسالته إلى أهل أفسس، يكتب في الأمر نفسه: "خذوا **سلاحَ** الله لتستطيعوا أن تقاوموا في يوم الشرّ وتظلّوا قائمين وقد تغلّبتم على كلّ شيء. فانهضوا إذًا وشدّوا أوساطكم بالحقّ، والبسوا درع

[١] **مخطوطات السيرة الذاتيّة**، مخطوط ج، ص ٥ ش.

البرّ، وانتعلوا بالنشاط لإعلان بشارة السلام، واحملوا ترس الإيمان في كلّ حال، فَبِه تستطيعون أن تخمدوا جميع سهام الشرّير المشتعلة، واتّخذوا لكم خوذة الخلاص وسيف الروح، أي كلمة الله" (أف ٦: ١٣-١٧).

النوع **الثاني**، لا إراديّ، وهو الذي لا يتحمّل فيه المؤمن أيّة مسؤوليّة، أي لا يكون فاعلاً بل مفعول به. لحكمةٍ من عنده، يسمح الله بأن يُجرَّبَ متّقيه، الذين ارتقت نفوسهم عاليًا في درجات السموّ الإلهيّ، بأن يمرّوا، لحين، في "نفق الإيمان المظلم" (القدّيسة تريزيا الطفل يسوع)، وفي "الليل الحالك" (القدّيس يوحنّا الصليب). إنّها النشوفة الروحيّة الكلّيّة، التي لا يقوى على احتمالها إلاّ من ذهب في التقوى وفي التحامه بالله شأوًا بعيدًا.

لنترك هذا النوع من الفتور، ولنتكّلم عن النوع الأوّل الذي هو من صنع أيدينا، نحن الذين ما زلنا بعدُ "**أطفالاً في المسيح**" (١كور ٣: ١).

تجربة "مصر"

تجربة الفتور تجربة متجذّرة في الإنسان ليس من الهيّن قلعها. تولد مع المؤمن بمجرّد ولادة الإيمان في قلبه. فالإنسان بتكوينه عاطفيّ، يتحمّس لإيمانه ولأيّة نشوة روحيّة تتملّكه. فيسرع، كبطرس في حدث التجلّي، إلى "**نصب الخيام**" (مر ٩: ٥)، لأنّ الإقامة هناك حسنت في عينيه. من هنا يروح يصلّي ويجهد في التسبيح والشكر. لكن، ما إن ينزل من جبل الرؤيا إلى أرض الواقع، حتّى يبدأ النسيان يتسلّل إلى عقله، فيمحو له مرورُ الزمن ذكرى الخلاص الحلوة. رويدًا رويدًا نراه يتخلّى عن مبادئ سبق وعدّها مقدّسة في هيكل إيمانه، مبدأ وراء مبدأ. ويصل به الأمر أحيانًا إلى التمرّد على كلّ شيء، ليس إلاّ لأنّ النسيان نخر فيه حتّى العظم. ينسى الإنسان ما منّ عليه الله؛ ينسى أنّه إنسان مخلَّص، ولخلاصه دُفع ثمن غالٍ وسُفك دم: "**قد اشتُريتم وأُودِّي الثمن**" (١كو ٦: ٢٠). أمّا صلاته فتصبح في خبر كان، ويتبخّر التسبيح ويختفي الشكر.

خبرة النسيان هذه هي خبرة شعب الله في الكتاب المقدّس. هي بالضبط خبرة "**مصر**". كانت مصر، بالنسبة لشعب الله، الـ"بُعبُع" الذي يجب التحذير منه في كلّ سطر من العهد القديم. نقرأ في "**الكلمات العشر**" (المعروفة شعبيًّا بـ"الوصايا العشر"):

"أنا الربّ إلهك الذي أخرجك من أرض **مصر**، من دار العبوديّة" (تث ٥: ٦)؛

"إحفظ يوم السبت لتقدّسَه، كما أمرك الربّ إلهك... واذكر أنّك كنتَ **عبدًا في أرض مصر**، فأخرجك الربّ إلهك من هناك بيد قويّة وذراع مبسوطة..." (تث ٥: ١٢، ١٥).

لماذا هذا التحذير من مصر؟ لأنّ مصر، لشعب الله، كانت أكثر من مكان جغرافيّ يقع جنوبيّ إسرائيل وفيه أقام الأجداد لفترة من تاريخهم. لم تعد مصر بلدًا بل حالة، حالة عبودية. هي ذكرى الظلم والخوف، حيث الله بعيد وغائب، حيث لا رجاء في نجاة ولا أمل في مخلِّص. بكلمة، مصر هي مرادف الموت.

لكنّ المأساة، مأساة الله مع شعبه، هي في أنّ هذا الشعب، حتّى من بعد أن خلّصه الله من مصر "بيد قديرة وذراع مبسوطة" (تث ٤: ٣٤)، ظلّ **يحنّ إلى "مصر"**، إلى مكان عبوديته. ما إن يجابه شدّة، أو تفرغ معدته من ماء أو بطنه من خبز، نراه ينسى كلّ ما تمّ من خلاص، ويروح يتوق إلى قديمه المظلم. وتشتدّ المأساة قساوة على قلب الله عندما يرى الشعب يحنّ إلى أكثر ما في مصر من تفاهة ورخص: تاقت نفسه إلى تينها ورمّانها ومواشيها، ونسي عبوديّته فيها وظلم فرعونها عليه. هذا ما نقرأه:

– عند حدث الخروج: "... ولما قرب فرعون، رفع بنو إسرائيل عيونهم، فإذا المصريّون ساعون وراءهم، فخافوا جدًّا، وصرخ بنو إسرائيل إلى الربّ، وقالوا لموسى: **أمِن عدم القبور بمصر أتيت بنا لنموت في البرّيّة؟ ماذا صنعت بنا فأخرجتنا من مصر؟ أليس هذا ما كلّمناك به في مصر قائلين: دعنا نخدم المصريّين من أن نموت في البرّيّة؟** (خر ١٤: ١٠-١٢).

– وقبل نزول المنّ والسلوى: "فتذمّرت جماعة بني إسرائيل كلّها على موسى وهارون في البرّيّة، وقال لهما بنو إسرائيل: **ليتنا متنا بيد الربّ في أرض مصر، حيث كنّا نجلس عند قِدْرِ اللحم ونأكل من الطعام شِبعَنا، في حين أنّكما أخرجتمانا إلى هذه البرّيّة لتُميتا هذا الجمهور كلّه بالجوع**" (خر ١٦: ٣).

– وعند فقدان الماء: "وخاصم الشعب موسى وقالوا: ... لماذا جئتما بجماعة الربّ إلى هذه البرّيّة لنموت ههنا وماشيتنا؟ **ولماذا أصعدتمانا من مصر فجئتما بنا إلى هذا المكان المشؤوم، مكان لا زرع فيه ولا تين ولا كرمة ولا رمّان ولا ماء للشرب؟**" (عد ٢٠: ٣-٥).

– بل حتّى عند أبواب أرض الميعاد: "وبكى الشعب في تلك الليلة... يا ليتنا متنا في هذه البرّيّة! لماذا أتى الربّ بنا إلى هذه الأرض حتّى نسقط تحت السيف وتصير نساؤنا وأطفالنا غنيمة؟ **أليس خيرًا لنا أن نعود إلى مصر؟ وقال بعضهم لبعض: لنُقم رئيسًا ونعد إلى مصر!**" (عد ١٤: ١-٤).

بكلمة، خبرة مصر هي أن تنسى خلاصك، وتحنّ إلى خبز إنسانك القديم، فلا تعود تصلّي، وإن صلّيت، فلا تكون صلاتك إلاّ تمتمة شفاه لا حياة فيها. هذا هو الفتور بعينه.

"كن صابرًا..."

كلّنا، بشكل أو بآخر، نعيش خبرة شعب الله هذه. لكلّ منّا "مصره". والفتور فينا إنّما هو في هذين الفعلين: **ننسى** ما أُعطي لنا، و**نتوق** إلى "مصر". تجاه هذا الواقع المرير، كيف يجب علينا أن نتصرّف؟ بداية أن نسمع هذه النصيحة الذهبيّة للحكيم يشوع بن سيراخ:

" يا بُنيَّ، إن أقبلتَ لخدمةِ الربّ، فأعدِدْ نفسَكَ للمحنة

أرشِدْ قلبَكَ واصبِرْ، ولا تكُنْ قلقًا في وقتِ الشدّة...

مهما نابَكَ فاقبلْه، وكُنْ صابرًا على تقلُّباتِ حالِكَ الوضيع" (بن سيراخ ٢: ١-٢، ٤).

كلّ من يعمل يُخطئ، ومن يصلّي يفتر. التعثّر شيء حتميّ في مسيرتنا الروحيّة، والفتور لا مهرب منه. من هنا ضرورة أن نصبر على نفسنا ونتقبّل ضعفها. الصبر هو اختبار لتواضعنا. من يتّضع ويقبل خطأه، يتخطّاه ويتقدّم. أمّا من يموت في حسرة خطاياه ويرفض التواضع والاعتراف بإمكانيّة الخطأ، فهو إنسان جامد يصعب عليه التقدّم إلى الأمام.

يجب ألاّ ننسى أبدًا أنّنا نتعامل مع نفس بشريّة وليس مع حجر. هذه النفس تكون حينًا نارًا بحماسها، وأحيانًا جمادًا بكسلها؛ يومًا خاشعة، وأيّامًا فاترة؛ تارة هادئة وطورًا عاصفة؛ الخير الذي تريده لا تفعله، والشرّ الذي لا تريده إيّاه تفعل (راجع رو ٧: ١٩).

محظور واحد ممنوع الوقوع فيه: اليأس من النفس وعدم الثقة بها. هذا ما يسعى إبليس جاهدًا أن يزرعه فيّ وأن يلقّنّي إيّاه بالملعقة: لا أمل فيك بعد اليوم، ضعفك قاتل مميت... لكن، لأتذكّرْ قليلاً: أليست نفسي المحبطة الآن هي نفسها من أحبّت الله قديمًا وقطعت أمامه بكلّ نيّة صافية وعدًا بالوفاء؟ من فعل ذلك قديمًا يمكنه أن يعاود الكرّة، مرّة ومرّتين وثلاث. يجب ألاّ يبقى ضعفي حجر عثرة بل فليكن مهمازًا يحثّني إلى الأمام: "**حسبك نعمتي، إنّ قوّتي في الضعف تكمل**" (٢كور ١٢: ٩). هكذا تخطّى بولس عقدة ضعفه، وكسر أيضًا مرآة ماضيه الذي ما انفكّ يعذّبه ويكبّله بأخطائه: "**لا أحسب نفسي قد قبضت عليه، وإنّما يهمّني أمر واحد وهو أن أنسى ما ورائي وأمتدّ إلى الأمام، فأسعى إلى الغاية للحصول على الجائزة التي يدعونا الله إليها من علُ لننالها في المسيح يسوع**" (فل ٣: ١٣-١٤). وهكذا يجب علينا نحن أيضًا أن نكسر المرآة التي تعكس دائمًا عقدة الشخص الـ "super ego"، "السوبر مان"، الذي يجب علينا أن نكونه.

ربِّ حرّيتك

ولكي لا أحنّ مجدّدًا إلى "مصر"، عليّ أيضًا أن أربّي حرّيّتي، تلك التي أعطانيها الله. قال مرّة الكاردينال كارلو ماريّا مارتيني، أسقف ميلانو السابق، معلّقًا على أحد نصوص سفر العدد السابق ذكرها والتي تتكلّم عن خبرة شعب الله في برّيّة سيناء: "يجب بإلحاح مطلق أن **نتربّى على الحرّيّة** التي

هي عطيّة من الله... علينا ألاّ ننسى أنّ الحرّيّة إنّما أعطيت لنا **كي ندخل في علاقة مع الآخرين، لاسيّما مع "الآخر" الإلهيّ**"[٢].

لن نقدر أن نتخلّص من عبوديّة الفتور وننطلق في رحاب الصلاة الفسيحة طالما ما زلنا تحت أحكام الشريعة القديمة، شريعة الواجب. كثيرون منّا يتصرّفون مع الله من باب الواجب لا من باب الرغبة في اللقاء معه عبر الصلاة. لذلك، كلّما كثر الواجب، خفّت المحبّة وأطلّ شبح الفتور. هذا للأسف فخّ خطير كثيرًا ما نقع فيه.

في أحيانٍ كثيرة، نكون ليتورجيّين من دون أن نكون مصلّين؛ ملتزمين من دون أن نكون يسوعيّين، موظّفين كنسيّين من دون أن نكون خدّام الكلمة. رائع كلام المطران جورج خضر عندما وصف هذا الواقع المرير الذي يعيشه كثيرون منّا اليوم: "أنا أعتقد أنّ الكنيسة المسيحيّة هي في واقعها التاريخيّ نخبويّة. ليست نخبويّة العقل والذكاء، بل نخبويّة القلب، أي أرستقراطيّة روحيًّا. وبقيّة الناس يسيرون في الطقوس والشكليّات واللباس الكهنوتيّ والبخّور، وفي أمور الطائفة وأوقافها ومكانتها الاجتماعيّة. هذا يملأ وقتهم ويلبّي همومهم، لكنّهم يظلّون غرباء عن وجه المسيح. نستطيع أن نقول إنّ هناك اندماجًا في الحياة الطائفيّة، دون أن يكون هناك اندماج بالمسيح"[٣].

الصلاة إذًا سرّ وفنّ، سرّ يُخرجنا من "مصر" ويدخلنا إلى "أرض" الله؛ وفنّ برع البعض منّا فيه والبعض الآخر لا تزال تلزم عن نيّته الصلاة.

---

[2] Carlo Maria MARTINI, *La debolezza è la mia forza. Meditazioni sulla seconda Lettera ai Corinzi*, Piemme, Casale Monferrato 2000[3], 103.

[٣] جورج خضر، **هذا العالم لا يكفي**، (حاوره سمير فرحات)، دار النهار للنشر، بيروت ٢٠٠٦، ص ٣١.